

المطالب الاجتماعية والاقتصادية للشيوعيين في الجزائر

1945-1920م

Social and economic demands of the communists
in Algeria 1920-1945

جامعة مولود معمري تيزي وزو/ الجزائر	تاريخ حديث ومعاصر	عزيز خيثر - أستاذ محاضر أ (azizkhitergeo@gmail.com)
DOI :		

الإرسال: 2022/10/08 القبول: 2022/11/13 النشر: 2022/12/22

ملخص:

تسعى هذه الفسحة من البحث الى دراسة جانب مهم من برنامج عمل الحزب الشيوعي الجزائري، وذلك من خلال تسليط الضوء على المطالب الاجتماعية والاقتصادية التي كان يناضل من أجلها الشيوعيون في الجزائر منذ سنة 1920م إلى غاية انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهو ما يتيح ليس فقط التعرف على شكل النضال الذي خاضه هذا الحزب في هذه الفترة، وإنما أيضا موقفه من القضية الوطنية، والقناعات والتصورات التي كان يؤمن بها لكيفية معالجة وحل هذه القضية.

لقد ركز الشيوعيون في نضالهم على المطالب الاقتصادية والاجتماعية دون السياسية، على الرغم من ادراكهم بأن أصل المشكل الجزائري سياسي بامتياز، الأمر الذي جعل نضال هذا الحزب فاشل وضعيف، كما جعل أيضا نضاله في بقية المجالات يبدو كمحاولة للتورية أو التعويض على ذلك الفشل، بمعنى أن عجز هذا الحزب في تحقيق "الثورة السياسية" التي تنادي بها الشيوعية جعله يتبنى "الثورة الاجتماعية".

الكلمات المفتاحية: الحزب الشيوعي الجزائري؛ النضال؛ المطالب؛ فرنسا؛ الجزائر.

Abstract:

This space of research seeks to study an important aspect of the work program of the Algerian Communist Party, by highlighting the social and economic demands that the communists in Algeria have been fighting for since 1920 until the end of the Second World War, which allows to identify not only the form of struggle that this party fought in this period, but also its position on the national issue, and the convictions and perceptions it believed in how to address and solve this issue.

The Communists focused their struggle on economic and social demands rather than political, despite realizing that the origin of the Algerian problem was political par excellence, which made the struggle of this party a failure and weak, and also made its struggle in the rest of the fields seem like an attempt to pun or compensate

for that failure, in the sense that the inability of this party to achieve the "political revolution" advocated by communism made it adopt the "social revolution."
Keywords: Algerian Communist Party; Struggle; Demands; France; Algeria.

مقدمة:

لا يزال حقل البحث في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية يستهوي الباحثين والمؤرخين الجزائريين، على الرغم من الميل الذي بدأ يشعر به المتتبع لحركة الكتابة التاريخية الوطنية نحو البحث في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للحركة الوطنية، إلا أن انصراف الكثير من الكتابات التاريخية في الجزائر نحو التاريخ السياسي والعسكري لا يزال السمة البارزة التي تطبع هذه الكتابات التاريخية.

إن هذا الوضع لحركة الكتابة التاريخية في الجزائر لا ينبغي أن يفسر بغياب أو ضعف مساهمة الشعب الجزائري ونخبه في صناعة تاريخ الجزائر خارج هذين المجالين. كما لا ينبغي أيضا أن يفهم منه عدم حصول تطور للمجتمع الجزائري في المجال الثقافي والاجتماعي والاقتصادي خلال هذه الفترة وحتى خلال الثورة التحريرية، بل على العكس من ذلك تماما فالتطور السياسي الذي حصل للحركة الوطنية أو الثورة كان إلى حد بعيد نتيجة لذلك التحول الاجتماعي والثقافي الذي عرفته الجزائر منذ أواخر القرن 19م، ومن هذا المنطلق يمكن أن ندرك أهمية البحوث والدراسات التاريخية ذات الطابع الاجتماعي والثقافي والاقتصادي في كتابة التاريخ الوطني للجزائر خلال الفترة المعاصرة.

لقد درج المؤرخون المهتمون بتاريخ الجزائر المعاصر سواء الفرنسيين منهم أو الجزائريين على تقسيم الحركة الوطنية إلى أربعة اتجاهات فكرية وسياسية هي: الاتجاه الاستقلالي، الاندماجي، الإصلاح والاجتماعي. فأطلقوا الأول على حركة مصالي ورفاقه، والثاني على النخبة الجزائرية المفرنسة، والثالث على جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والأخير على الحزب الشيوعي الجزائري. ولقد جاء هذا التقسيم بالدرجة الأولى على أساس البرنامج أو المطالب والأهداف الأساسية التي كان كل تنظيم يناضل من أجلها.

كانت برامج هذه الأحزاب تعكس قناعاتها وتصوراتها لشكل وكيفية معالجة وحل القضية الوطنية، لذلك تسمح دراسة برامج هذه الأحزاب للباحث ليس التعرف فقط على موقف هذه الأخيرة من القضية الوطنية، وإنما حتى هوية وتوجه كل حزب. ومن دون

التوغل كثيرا في تفاصيل هذه الفكرة، سنحاول في هذه الفسحة من البحث دراسة جانب مهم من برنامج عمل الحزب الشيوعي الجزائري، وذلك بتسليط الضوء على المطالب الاجتماعية والاقتصادية التي كان يناضل من أجلها الشيوعيون في الجزائر منذ سنة 1920م إلى غاية انتهاء الحرب العالمية الثانية، حتى يتسنى لنا التأكد من صحة الصفة "الاجتماعية" التي يطلقها الكثير من المؤرخين على هذا الحزب في الحركة الوطنية، وإلى مدى كان هذا الأخير موفقا في مراهنته على هذه المطالب في تحقيق مطامحه ومطامح الشعب الجزائري؟ وهل كان هذا التوجه استجابة لمبادئ الإيديولوجية التي كان يعتقدونها هذا الحزب، أم استجابة للوضعية الخاصة التي كانت تعيشها الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي؟ أو كان مخرجا لمأزق وقع فيه هذا الحزب خلال مسيرته النضالية حاول من خلالها التغطية على فشله السياسي؟.

1- الفناعات الفكرية للنضال الاجتماعي والاقتصادي عند الشيوعيين في الجزائر:

تكاد تكون اليوم المبادئ التي تقوم عليها النظرية الشيوعية معروفة عند قطاع عريض من المفكرين والمثقفين، لذلك سوف لن نستعرض في تكرارها إلا بالقدر الذي يهم موضوع بحثنا، ولأسيما ما تعلق بالنضال الاجتماعي والاقتصادي الذي خاضه الشيوعيون في الجزائر. وكما سبقت الإشارة إليه فإن الفكر الشيوعي قد شابه الكثير من الغموض عند بداية ظهوره كنظرية فلسفية جديدة بمفاهيم ومبادئ غير مألوفة، زاد من غموضها بداية تطبيقها كنظام سياسي لتسيير الدولة منذ الربع الأول من القرن 20م. أما إذا عدنا بالفكر الشيوعي إلى الجزائر في هذه الفترة وما بعدها فإن المتبوع له يلحظ غموضا أكبر، و يحصل له تشويش كبير عند محاولة تقصي وفهم هذه النظرية أو الفكر، لأسيما إذا ما قُرنَت بالممارسة أو السياسة التي اتبعتها الشيوعيون الفرنسيون سواء في فرنسا وبدرجة أكبر في الجزائر خلال مسيرتهم النضالية، وهذا راجع في اعتقادي إلى كثرة الأخطاء والتناقضات التي شابت هذا النضال، بالشكل الذي جعل هذا الأخير يبدو في أحيان كثيرة بعيدا وغريبا عن هذا الفكر ومبادئه التي توصف بـ "الثورية"، غير أن ما تجدر الإشارة إليه هو أن حدة هذا التناقض كانت تخف كلما ابتعد ذلك النضال عن الحياة السياسية، أين كان يبدو أكثر توازنا وتناغما في بقية المجالات الأخرى لأسيما الاجتماعية والاقتصادية.

كانت الشيوعية التي ظهرت في الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى تنتهي إلى الماركسية-اللينينية، وتتبنى نظرية "الصراع الطبقي" التي تعتمد في كفاها على الطبقة البروليتارية، وفي طبيعتها الشغيلة لتحقيق المبادئ الشيوعية، والقضاء على الامبريالية الرأسمالية والهيمنة الاستعمارية (حري، 2006، صفحة 115)، ولقد كان لاعتناق هذا الفكر من طرف الشيوعيين في فرنسا والجزائر، وسعيهم إلى تحقيق تلك الأهداف أن جعلهم يبدون أكثر الأحزاب الفرنسية تقربا وتفهما للقضية الجزائرية (بوحوش، 2008، صفحة 280)، بل حتى أن شارل روبير أجرون اعتبر بأن الحزب الشيوعي الجزائري كان من الحركات السياسية النادرة إلى جانب الحزب الاشتراكي الفرنسي التي حاولت التقريب بين المجموعتين المتناحرتين في الجزائر حول مفهوم الطبقات والوطن (أجرون، 2008، صفحة 617). ومن الناحية الشكلية كان الشيوعيون في غالب الأحيان –ماعدًا الأوقات التي تتعرض فيها فرنسا للخطر-يمثلون قوة سياسية منافسة للرأسمالية الحاكمة في الميتروبول، ووجهة معارضة للسلطة الفرنسية في المستعمرات، ذلك أن إرادة التغيير في إطار الصراع الطبقي الذي تخوضه الشرائح الاجتماعية ضد النزعة البراغماتية للرأسمالية الاستعمارية في الجزائر فرض وبقوة على الشيوعيين مساندة مطالب الجماهير الكادحة، ودعم الحركات الاحتجاجية، والوقوف إلى جانب الإضرابات العمالية. وفي هذا الصدد يرى محمد قنانش بأن هذا الموقف من الشيوعيين الجزائريين في معاداتهم للاحتلال والرأسمالية كان نابعا من الثقافة التحررية العميقة في وجدان زعماء الحزب الشيوعي الجزائري أمثال موريس توريث، حاج علي عبد القادر، بن علي بوخرط، قدور بلقايم، محمد بادسي، عمار أوزقان ... (قنانش، 2012، صفحة 53).

ما ينبغي توضيحه حول هذه القناعة الشيوعية "التحررية" التي تعادي الاستعمار والامبريالية، وتعتمد على النضال الذي تخوضه الشرائح الاجتماعية لاسيما الشغيلة، لم يكن المقصود بها عند الشيوعيين في الجزائر قيام الأهالي المسلمين بالثورة ضد الهيمنة الاستعمارية الفرنسية، والتي كانوا يرون بأنه حتى في حال حصولها فإن مآلها سيكون الفشل، ذلك أنه يشترط في نظرهم أن تسبقها ثورة للبروليتارية الفرنسية في فرنسا، هي من تقوم بتحريرهم من الاستعمار (خيثر، "ظهور التنظيم الشيوعي بالجزائر و موقفه من فكرة الوطنية 1936-1920"، 2016، الصفحات 294-295). وحسب محمد حربي فإن من بين أكبر الأخطاء التي وقع فيها الشيوعيون الجزائريون بالإضافة إلى عدم تبنيهم الصادق

لقضية الأهالي المسلمين، هو عدم تقديرهم للفلاحين باعتبارهم قوة محرّكة ووقود للثورة، وبدلاً من ذلك اهتموا بالنضال في المدن وعلى السكان الأوروبيين، وذهبوا في سوء تقديرهم لمسألة الأهالي إلى اعتبار الجزائريين المسلمين في أحسن الأحوال قوة إضافية لأي حركة نضالية وليست هي الطليعة (حربي، 2006، صفحة 118).

ومن أغرب القناعات الفكرية التي كان يؤمن بها كثير من الشيوعيين الفرنسيين لاسيما خلال العشرينيات من القرن 20م، هي تلك التي ترى بأن وجود الاستعمار يعتبر ضروري بالنسبة للشعوب المستعمرة في محاولة مكشوفة لتفسير وتقديم الاستعمار من وجهة نظر ماركسية، ومن ثم فإن دعم الاستعمار في نظرهم ليس فيه تعارض مع مبادئهم بقدر ما هو ضروري لبلوغ الأهالي مرحلة النضج، التي تؤدي حسب اعتقادهم إلى "صراع الطبقات"، ذلك أن الاستعمار هو الذي يعمّق الهوة بين طبقات المجتمع. وهو الأمر الذي كان في نظرهم لا يزال مبكراً، ومن ثم لا جدوى من القيام بالثورة لأنها سوف تكرر هيمنة الطبقة البورجوازية! (قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1919-1939، 2008، صفحة 193).

حتى مفهوم الثورة التي كان يدعو إليها هؤلاء الشيوعيين كان يحمل عدة تأويلات وتفسيرات يغلب عليها الغموض، وفي الحالة الجزائرية كانوا يتفادون شرحه، وفي المقابل يركزون على الظروف الواجب توفرها للثورة من أجل نجاحها، مثلما جاء في عدد أفريل 1936م لجريدة "الصراع الاجتماعي": "... إن الشيوعيين يقولون صراحة بأن القوة العنيفة للامبريالية لا يمكن قلمها إلا بالثورة. لكن الشيوعيين لا يلبعون مع الثورة، بل مع إعداد الشروط المساعدة على الثورة، أين يكافحون من أجل تحسين وضع السكان الكادحين من أجل الخبز والحرية..." (قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1919-1939، 2008، صفحة 571).

مع كل هذا يذكر محمد قناش بأن الشيوعيين في الجزائر قد حاولوا إضفاء بعد إنساني على حركتهم الثورية من أجل النجاح في تعبئة قطاع أوسع من شرائح المجتمع الجزائري لاسيما العمال، ويرى بأن هذا التوجه كان نابعا من اقتناع هؤلاء بتلك الفكرة الفلسفية التي مفادها بأن كسب تحديات التحرر يبدأ من أنسنة (Humanisation)

المجتمع قبل أدلجته (Idiologisation)، باعتبار أن رعاية شؤون العامة رعاية كاملة وصادقة يضمن النتائج المسطرة والأهداف المحددة لكل مسيرة اجتماعية تحررية تخوضها الحركة الثورية إلى جانب الشريحة العمالية لمقاومة التسلط الرأسمالي (قنانش، 2012، صفحة 47).

يرى محمد قنانش أيضا بأنه من هذا المنطلق استمدت فلسفة التحرر عند الشيوعيين قوتها لمجابهة التغول الرأسمالي باعتباره نظاما طبقيًا جعل شريحة العمال في المركز الأدنى داخل الهرم الاجتماعي، وبأن هذا التفاوت الطبقي والبنوي المختل للمجتمع الجزائري قد ركز الشيوعيون على محاربتة، وطالبوا بإلغائه وإحلال محله قيم العدالة الاجتماعية و مبدأ تكافؤ الفرص بين الجميع، سعيا منهم إلى جعل حزبهم نموذجا للحركة الثورية المصرة على خوض معركة تحرير الطبقات الاجتماعية من الاستغلال الرأسمالي والابتزاز الاستعماري (قنانش، 2012، صفحة 49). ولعل تتبع النضال الاجتماعي والاقتصادي لهذا الحزب سيسمح بالتعرف على مدى نجاح هذا الأخير في هذا المسعى.

2- النضال الاجتماعي والاقتصادي للحزب الشيوعي الجزائري 1920-1945م:

شكلت المطالب الاجتماعية والاقتصادية في برنامج عمل الحزب الشيوعي أهم المسائل والقضايا التي كان يناضل من أجلها طيلة مسيرته حتى قبل تأسيسه سنة 1936م بأكثر من عقد، بعدما اعتبر أن تحقيق هذه المطالب كفيل لوحده ليس فقط بحل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعاني منها الشعب الجزائري، وإنما ما كان يصطلح عليه بـ "المشكل الجزائري" ككل. لذلك سنحاول قدر الإمكان إعطاء فكرة عن أهم هذه المطالب منذ ظهور التنظيم السياسي الشيوعي في الجزائر سنة 1920م، قبل التطرق لها في مرحلة ما بعد تأسيس هذا الحزب من 1936م إلى غاية انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة 1945م، وذلك من خلال تتبع هذه المطالب والسياقات التاريخية التي جاءت فيها بالشكل الذي قد يتيح معرفة جانب مهم من التطور التاريخي لمسيرة النضال الاجتماعي والاقتصادي التي خاض غمارها هذا الحزب، لأنها تكشف عن بعض الجوانب من توجه وموقف هذا الأخير من القضية الوطنية فضلا عن تصوراته لحلها، ومن جهة أخرى يفيد ويسهم في نظري تتبع هذه المطالب بالدراسة في التأكيد بالإيجاب أو السلب على تلك الفكرة التي يتبناها مناضلي هذا الحزب وأنصاره، والتي مفادها أن راية النضال الاجتماعي والاقتصادي في الساحة

النضالية الوطنية كانت في يد هذا الحزب، الذي لم يستطع مجاراته فيه أي حزب أو تنظيم آخر في الحركة الوطنية الجزائرية، بعدما جعل الشيوعيون من المسألة الاجتماعية مسألة مركزية (حربي، 2006، صفحة 118).

أ- المطالب الاجتماعية والاقتصادية للشيوعيين في الجزائر من 1920م إلى 1936م :

إن بداية ظهور التنظيم الشيوعي في الجزائر مطلع العشرينات واقتحامهم لهذا الحقل من النضال لم يكن موفقا، بحيث كان موقفهم من هذه المسألة لا يقل سوءا عن موقفهم من القضية الوطنية في شقها السياسي (آجرون، 2008، صفحة 618)، فمن بين ما جاء في رد فرع سيدي بلعباس على نداء الأممية سنة 1922م بخصوص تحرير الجزائر وتونس: "إن أهالي شمال إفريقيا يتشكلون في معظمهم من العرب الراضين للتطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والأخلاقي الضروري للأفراد من أجل تكوين دولة مستقلة قادرة على الوصول إلى الكمال الشيوعي" (قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1919-1939، 2008، صفحة 226). في هذا الرد بيان واضح على عدم اهتمام الشيوعيين في الجزائر بالمشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعاني منها الأهالي، فضلا عن تبنيهم لها كمطالب يناضلون من أجلها.

على الرغم من التحول السريع الذي حصل للشيوعيين فيما بعد في هذا الحقل من النضال على الصعيد الدعائي والإعلامي، إلا أن هناك حقيقة تاريخية ثابتة بهذا الخصوص مفادها أن الشيوعيين الفرنسيين سواء في الجزائر أو فرنسا إلى غاية نهاية عقد العشرينات بقي نشاطهم الميداني بمعزل عن الأهالي لاسيما العمال، بحيث لم يتم القيام بأي شيء من أجل كسبهم، على الرغم من إدراكهم و معرفتهم بأن هؤلاء الأهالي كانوا يعانون من اضطهاد مزدوج، اضطهاد الامبرياليين واضطهاد البورجوازية الأهلية، وهو ما اعترفت به نقابة "الكونفدرالية العامة للشغل الموحد" (CGTU) في مؤتمر النقابات المنعقد سنة 1927م (قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1919-1939، 2008، صفحة 329).

بحلول سنة 1923م قام مجموعة من الشيوعيين الأوروبيين رفقة بعض الوطنيين الجزائريين بإعداد مجموعة من المطالب، من أهم ما جاء فيها:

-قبول الأهالي في كل المناصب الإدارية والسياسية.

- المساواة في الأجور بين الفرنسيين والأهالي حسب المساواة في الكفاءة والوظيفة.

-التعليم الإجباري في جميع المستويات بالنسبة للأهالي.

- مشاركة الأهالي في شراء حصص الاستيطان.

أما في مشروع عمل الشيوعيين الذي أقره المؤتمر الاتحادي للجزائر العاصمة يومي 14-15 جانفي 1923م، فقد جاء فيه بعد التنديد بجميع القوانين الاستثنائية المطبقة على الأهالي ما يلي:

-الثورة على الواقع الذي يخضع الأهالي للشريعة القرآنية البالية!، والتي تقيدهم في الكفاح من أجل الحياة.

- إدانة عمل البورجوازية على حماية الخرافات الدينية الإسلامية لخدمة مصالحهم الشخصية.

- القيام بالدعاية من أجل نشر التعليم.

- فضح الاستعمار الذي يقوم بزرع الأراضى من أصحابها والاستيلاء على الأملاك.

- توظيف جريدة "الصراع الاجتماعي" للتنديد بطول مدة الخدمة العسكرية للأهالي مقارنة بالأوروبيين.

- ممارسة العمل النقابي واجب على كل المنخرطين في الحزب الشيوعي، مع بذل الجهود لإنشاء نقابات فلاحية (قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1919-1939 ، 2008 ، الصفحات 1285-1286).

تدعيما لهذا الخط في العمل صرح الحزب الشيوعي الفرنسي في مؤتمر ليون المنعقد سنة 1924م بأنه يريد الكفاح لتحقيق مطالب الأهالي، وبين بأن الأمر لا يتعلق بتبني سياسة إصلاحية، وإنما بالبرهنة على التعاطف مع مطالب الأهالي، دون الكف عن إظهار عدم جدوى الإصلاحات التي يطرحها النظام الرأسمالي (قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1919-1939 ، 2008 ، صفحة 200). ومع اقتراب الانتخابات التشريعية لسنة

1928م بدأ الشيوعيون يبحثون عن الدعم الشعبي من خلال وضع مصلحة الأهالي في المقدمة، أين طالبوا بوضع إجراءات فورية لشعوب المستعمرات من بينها:

- منح الحق النقابي التام للأهالي.

- تطبيق قانون 08 ساعات عمل على المستعمرات، وجميع قوانين الحماية في العمل والضمان الاجتماعي الموجودة في فرنسا.

- المساواة في الحقوق والأجور بين العمال الأهالي في فرنسا والعمال الفرنسيين (قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1919-1939، 2008، صفحة 336).

لقد ظلت تقريبا نفس هذه المطالب تتكرر مع الشيوعيين إلى غاية منتصف الثلاثينات، غير أن ما اعتقد بأنه يستحق التوقف عنده هنا هو أن سبب هذا التحول السريع الذي أدى إلى تغير موقف ونظرة الشيوعيين بالجزائر من الأهالي ومشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية التي أصبحوا يتبنونها في مطالبهم، بعدما كان موقفهم منها ومن الأهالي لا يختلف كثيرا عن موقف غلاة الكولون، وإذا كان في نظري من الصعب ربط هذا التحول بشواهد تاريخية تؤكد حصول تطور داخلي أو نقد ذاتي عرفه هذا التنظيم خلال هذه الفترة، فانه في المقابل يمكن القبول بفكرة تعرض هؤلاء الشيوعيين للضغط من طرف الكومنتيرين التي عبّرت في العديد من المناسبات عن سخطها وتوبيخها الكبيرين لهم، أين وصل الحد ببعض الشيوعيين الروس إلى المطالبة بإقصائهم بسبب تخاذلهم وموقفهم من الاستعمار (خيثر، "ظهور التنظيم الشيوعي بالجزائر و موقفه من فكرة الوطنية 1920-1936"، 2016، صفحة 302)، بالإضافة أيضا إلى الضغط الذي ربما شعر به الشيوعيون الجزائريون من ذلك التطور الذي بدأت تعرفه الحركة الوطنية الجزائرية في هذه الفترة مع تأسيس نجم شمال إفريقيا، وفيدرالية المنتخبين المسلمين، و ازدياد نشاط العلماء المصلحين، بالشكل الذي أجبرهم على محاولة التقرب أكثر من الأهالي لتوسيع قاعدتهم النضالية من الجماهير .

ومن جهة أخرى تجدر الإشارة إلى أن هذا التحول أو التوجه نحو تبني مطالب الأهالي الاجتماعية والإقتصادية، والتي تضمنت في معظمها المساواة بينهم وبين الأوروبيين لم يكن

أما يحظى بإجماع الشيوعيين الجزائريين الذين كان أغلبهم في هذه الفترة من الأوروبيين، ذلك أن عدم توافق أعضاء هذا التنظيم وأيضاً أعضاء الحزب الشيوعي الفرنسي حول السياسة المتبعة فيما يخص المسألة الجزائرية، كثيراً ما أدى إلى انتهاء اجتماعاتهم ومؤتمراتهم باستقلالات جماعية وفردية لمناضليه وحتى كوادره القيادية، كما حصل في مؤتمر 03 مارس 1926م (خيثر، "ظهور التنظيم الشيوعي بالجزائر و موقفه من فكرة الوطنية 1936-1926"، 2016، صفحة 304).

ب- المطالب الاجتماعية والاقتصادية للشيوعيين في الجزائر من 1936م إلى 1945م:

بحلول سنة 1936م عرف التنظيم الشيوعي في الجزائر تطوراً داخلياً كبيراً على الصعيد الهيكلي والتنظيمي، بحيث انتقل من حالة العمل اللامركزي الذي كانت تمثله الفيدراليات، إلى حالة العمل الموحد والمنظم في إطار حزبي مركزي. كما أوحى التسمية التي أُطلقت عليه بتمتع هذا الحزب بالصفة الجزائرية، التي قد تعكس دخول هذا الحزب في مرحلة الاستقلالية عن الأبوية التي كان يمارسها الحزب الشيوعي الفرنسي عليه في العمل والتسيير والتوجه، أين ظل الشيوعيون في الجزائريون يمثلون ظل هذا الأخير في الجزائر.

من جهة أخرى عرفت فترة منتصف الثلاثينات تطورات سياسية كبيرة على الساحة الجزائرية والفرنسية، استفاد منها كثيراً الشيوعيون في الجزائر، حيث نجحوا في التقرب من بقية الأحزاب والتنظيمات المشكلة للحركة الوطنية الجزائرية على اثر عقد المؤتمر الإسلامي، وأيضاً وصول الجبهة الشعبية المحسوبة على التيار اليساري للحكم في فرنسا، أين كان الحزب الشيوعي الفرنسي طرفاً أساسياً فيها. كل هذه المعطيات والمستجدات شكلت آنذاك فرصة كبيرة للشيوعيين في الجزائر من أجل تقوية حضورهم السياسي الذي كان باهتاً قبل هذه الفترة، وتوسيع تموضعهم الجماهيري خاصة في وسط الأهالي، لاسيما بعد التطور الكبير الذي عرفته بقية الأحزاب والتنظيمات الوطنية الأخرى. غير أن الذي يهمننا هنا هو ليس معرفة مدى استفادة هؤلاء الشيوعيون من هذه التطورات، بقدر معرفة مدى أثر هذه التطورات على توجه وبرنامج عمل هذا الحزب، لاسيما على الصعيد المطليبي الاجتماعي والاقتصادي.

كتب الشيوعي نيشمان ليست (Nechman List) في سنة 1936م كتاباً بعنوان "القضية الجزائرية"، دعا من خلاله إلى: "انجاز الثورة الزراعية المناهضة للامبريالية،

الكفيلة وحدها بإعطاء الجزائر استقلالها، وبتمكينها من تقوية قواها الإنتاجية التي كبلها الاستعمار" (الزيري، 2007، صفحة 220)، وتماشيا مع هذا الطرح الذي ينفي البعد السياسي للمشكل الجزائري ويحصر حلها في تحسين الوضع الاجتماعي والاقتصادي للأهالي، طالب بعض الشيوعيين والاشتراكيين من حكومة الجبهة الشعبية عدم الاهتمام فقط بالأوروبيين، وإنما مساعدة ومساندة –عوض الاستجابة- المطالب الرئيسية للشعب الجزائري، وقد وضحو هذه المطالب في اقتراحهم إعداد برنامج أهلي يتضمن: العمل، راتب محترم، الحق في منح البطالة، الإلغاء الفعلي لقانون الأهالي، تطوير التعليم، تنظيم الاستعمار من قبل الأهالي فوق أرضهم الخاصة، تمثيل مطابق لتمثيل المعمرين (قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1919-1939، 2008، صفحة 575).

استهل الحزب الشيوعي الجزائري نشاطه بسعيه الحثيث لإنجاح الجبهة الشعبية في انجاز إصلاحاتها، وخاصة منها مشروع "بلوم-فيوليت"، كما ساهموا بفعالية في عقد المؤتمر الإسلامي وتمكينه من تحقيق أهدافه (قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1939-1951، 2008، صفحة 1306). لقد كان هذا التوجه تجسيدا للفكرة التي نادى بها الشيوعيون "ليس أماننا سوى طريق واحد يضمن الاتحاد في إطار المؤتمر الإسلامي والتحالف مع الجبهة الشعبية أي مع الشعب في فرنسا" (الزيري، 2007، صفحة 222)، و أعادوا التأكيد عليها مرة أخرى في البيان الذي أصدره في أكتوبر 1936م، والذي من بين ما جاء فيه: "إننا نكافح من أجل مصير أفضل فورا ... إننا نحتضن بين ضلوعنا مصلحة شعبنا الذي نريد أن نخفف عنه معاناته، والذي نريد تجنيبه مغامرات لا طائل من ورائها، فنحن نعمل إذا على التحسين الفوري لمصير السكان الكادحين من الأوروبيين والعرب والبربر في الجزائر ... لذا فإننا نساند كل حركة تقدمية ... ونمنح ثقتنا ودعمنا للحكومة من أجل تطبيق برنامج الجبهة" (قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1939-1951، 2008، صفحة 1306).

وفي الانتخابات التشريعية لسنة 1936م تخلى الحزب الشيوعي الجزائري عن أطروحة "استقلال الجزائر" لصالح "محاربة الفاشية"، ووجه نداء للشعب الجزائري أكد فيه بأن ظرف الثورة في الجزائر غير متوفرة، وبأن الشيوعيين يعملون على توفير الشروط

المساعدة على الثورة، لذلك هم يكافحون من أجل تحسين وضع الكادحين من أجل الخبز، ونفس الأمر بالنسبة للحزب الاشتراكي الذي تعهد للأهالي بالقيام بثورة اجتماعية شرط تخليهم عن قادتهم البورجوازيين، وأن يتحالفوا مع العمال الكادحين الأوروبيين (قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1919-1939 ، 2008، الصفحات 571-572).

خلال هذه الفترة تمحورت سياسة الحزب الشيوعي الجزائري حول المطالبة بتحسين الأجور وتطبيق المساواة فيما يتعلق بالحقوق الاجتماعية من جهة (الزبيري، 2007، صفحة 225)، وحول ما يسمى بالإصلاحات التي بشر بها مشروع بلوم فيوليت (Agéron, 2005, p. 393)، وفي الوقت الذي لم يكن يتم فيه التطرق إلا باحتشام للقضية الوطنية ومن دون صياغتها صراحة، أين كان الحديث عن "جزائر حرة وسعيدة متحدة أخويا مع فرنسا" (قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1919-1939 ، 2008، صفحة 646)، كان في المقابل يتم التأكيد في كل مرة على المطالب الاجتماعية والاقتصادية في محاولة لتصويرها بأن الخلل في السياسة الاستعمارية وجوهر المشكل الجزائري يكمن فيها، لذلك ارتكز الحزب الشيوعي الجزائري في أدبياته على أن مشكل الجزائريين لا يتعدى مسألتي الخبز والشغل، وفي تصوره بأنه في حال تمكن الإدارة الفرنسية من توفير الخبز والشغل للجزائريين فإنها ستكفيهم شر الاستبداد الذي يمارسه غلاة الكولون، وستضمن الهدوء والاستقرار (الزبيري، 2007، صفحة 225).

ظل هذا التوجه مستمرا في خط عمل هذا الحزب خاصة مع اقتراب الحرب العالمية الثانية، أين أعطى الأولوية في نضاله ودعايته على التحذير من خطر الفاشية، إلا أن ذلك لم يشفع له عند الإدارة الاستعمارية التي قامت بحله سنة 1939م، ولم يستأنف نشاطه بشكل رسمي إلى غاية سنة 1942م (بوصفصاف، 2009، صفحة 227).

أثناء الحرب العالمية الثانية حاول الحزب الشيوعي الجزائري إعادة ربط الاتصال مع الجماهير المسلمة من خلال مطالبته بمضاعفة لجان الفلاحين والأحياء، والتنديد بابتزازات القيادة، عدم المساواة في المؤونة، المطالبة بالمساواة في رواتب المسلمين، تطبيق كل القوانين الاجتماعية، القيام بإصلاح زراعي، إصلاحات سياسية وإدارية. يعلق محفوظ قداش على هذه المطالب بأنها في الوقت الذي كانت فيه جريئة في المجال الاقتصادي والاجتماعي، فإنها ظلت غامضة في المجال السياسي، وغطتها تلك المسجلة في برامج الوطنيين، كما تجدر

الإشارة إلى أن سياسة هذا الحزب طيلة هذه الفترة كانت تعمل تحت شعار "كلنا في مواجهة العدو من أجل حرب الخلاص المقدسة".

حافظ الحزب الشيوعي الجزائري على عدم ارتباطه بالقضية الوطنية سياسيا، ليمضي في تشديده على تحسين الظروف المعيشية أكثر من المشكل السياسي والتطلع إلى حياة وطنية (قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1939-1951، 2008، الصفحات 933-937)، بحيث جاء في البرنامج الملحق بالتقرير الأدبي لـ "فرنسا المقاتلة" لوهان اقتراح للشيوخيين نشرته جريدة "الحرية" (Liberti) الصادرة في 11 ديسمبر 1943م المطالب التالية:

- المساواة في الأجور للعمل نفسه وفي المرتبات والمنح العسكرية.
- تطبيق كل القوانين الاجتماعية على جميع المسلمين.
- حرية تعلم اللغة العربية والمساواة في التمدرس.
- تطبيق سياسة حقيقية للنظافة والإعانة الاجتماعية.
- ضمان الممارسة الحرة للحقوق النقابية لجميع العمال المسلمين.
- منح الشعب المسلم حقوقا سياسية حقيقية.
- وضع حد لفضيحة الأراضي من خلال القيام بإصلاح زراعي جريء لمصلحة الفلاحين.
- التفكير في إصلاحات سياسية وإدارية قابلة للتحقيق في كامل الإمبراطورية.

وفي نداء آخر نقلته نفس الجريدة للجماهير الجزائرية على اثر المؤتمر المركزي للحزب الشيوعي الجزائري المنعقد يومي 23-24 سبتمبر 1944م جاء فيه: "إننا نكافح من أجل ظروف معيشية أفضل لعمال المدن والأرياف، دون تمييز عرقي أو ديني، ومن أجل المساواة في العمل، من أجل القوانين الاجتماعية للجميع، من أجل الديمقراطية للجميع، من أجل مساعدة الفلاحين والخماسين والمعمرين الصغار، والمساواة في الجيش والتموين والمساواة الإدارية"، كما جاء في هذا النداء أيضا:

- مصادرة أملاك الخونة ومخربي الإنتاج.

- التطبيق الفوري والحقيقي للأمر الصادر في 07 مارس 1944م.

- تعليم الجميع باللغة الأم (قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1939-1951، 2008، صفحة 985).

بعد مجازر 08 ماي 1945م وموقفه السلبي جدا منها، حاول الحزب الشيوعي الجزائري الانفتاح على الحركة الوطنية، أين شرع في حملة لصالح العفو الشامل، والدعوة لاتحاد جميع القوى الوطنية لتحقيق المطالب التي كان يتطلع إليها الشعب الجزائري، وحل جميع المشاكل التي كان يعاني منها – من وجهة نظر الشيوعيين طبعا- (قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1939-1951، 2008، الصفحات 1030-1031)، كما أصدر في 12 أوت من نفس السنة بيانا للجنة المركزية أعلنت فيه عن التوجه الجديد لسياسته، كما حدد المطالب الجوهرية التي سيسعى لتحقيقها وهي :

- إلغاء المفوضيات المالية واستبدالها بمجلس جزائري منتخب من قبل كل الشعب، يكون مكلفا بالتصويت على الميزانية والمراقبة المالية للحكومة العامة.

- تطبيق المساواة في التمثيل بين مسلمي الجزائر وأوروبيها في جميع الهيئات المنتخبة في المستعمرة، وفي المجلس التأسيسي.

- ترسيم اللغة العربية.

وما يوضح هذا التوجه آنذاك هو ما جاء في نشرية للجنة الفرنسية للتحريض الوطني الصادر بتاريخ 01 أبريل 1944م، أين عبّر الحزب الشيوعي الجزائري عن عدم استعداده لتبني فكرة الجمهورية الجزائرية المستقلة، وعدم قبوله بغير التطور في إطار الإمبراطورية الفرنسية حلا للمشكل الجزائري، الذي هو مجرد مطالبة بالخبز وبالحدود المادية، أما الحديث عن استرجاع الاستقلال فهو في نظره عين الديماغوجية، لأن الجزائر لا يمكن أن تكون غير تابعة لقوة خارجية (الزيري، 2007، صفحة 226).

لعل ما يمكن ملاحظته بشكل عام على النضال الذي خاضه الحزب الشيوعي الجزائري منذ تأسيسه إلى غاية اندلاع الحرب العالمية الثانية، هو ذلك التوجيه نحو

المطالب الجزئية. وفيما يخص تلك المتعلقة بالمجال الاقتصادي والاجتماعي فإنها لم تكد تخرج عن الدعوة أو المطالبة بالمساواة والاندماج (الشيخ، 2002، صفحة 39). أما بعد الحرب العالمية الثانية وإلى غاية اندلاع الثورة التحريرية، فإن هذا الحزب حافظ على نفس التوجه مع ميله للاهتمام أكثر بالمشاغل الاجتماعية والاقتصادية وأيضا الثقافية للأهالي الجزائريين، من قبيل التركيز على اللغة العربية والدفاع عنها، وحق الجزائريين المسلمين في التعليم ...، ولعل هذا الميل نحو هذه القضايا يمكن تفسيره بذلك التطور الذي حصل لسياسة الجزائر (خيثر، العمل النقابي في الجزائر ودوره في خدمة القضية الوطنية – الاتحاد العام للعمال الجزائريين نموذجاً- 1956-1962 (أطروحة دكتوراه)، 2017، الصفحات 38-45) التي شرع هذا الحزب في تطبيقها جدياً وبشكل واسع خلال هذه الفترة على قواعده النضالية وهيئاته القيادية. أين بدأ يحصل نوع من التوازن وحتى التفوق للجزائريين في تركيبة هياكل الحزب مقارنة بالأوروبيين.

خاتمة:

لا يتطلب الكشف عن الصفة أو البعد الاجتماعي في برنامج عمل الشبيوعيين في الجزائر خلال مسيرتهم النضالية سواء قبل تأسيس الحزب سنة 1936م أو بعدها بذل جهد كبير، وإذا كان هذا الحزب كثير التلون والتذبذب سياسياً فإنه على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي ظل ثابتاً ومستقراً على مطالبه منذ أن رفعها الشبيوعيون في السنوات الأولى من عشرينيات القرن 20م، غير أن اهتمام الشبيوعيين بهذه المطالب كان متفاوتاً على ما يبدو من فترة إلى أخرى، بحيث تتصدر مشهد العمل النضالي عند هؤلاء عندما يخفت صوت شعاراتهم السياسية "الثورية" والعكس صحيح. غير أن الذي يلاحظ على مطالب الشبيوعيين داخل الحركة الوطنية سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، هي أنها في أغلبها كانت توظف كشعارات للدعاية الانتخابية أكثر منها تعبير عن اقتناع حقيقي عند أغلب هؤلاء الشبيوعيين، لاسيما خلال عقدي العشرينات والثلاثينات عندما كان هذا التيار الشيوعي مسيطراً عليه من طرف الأوروبيين، ومرتبطاً أشد الارتباط بالحزب الشيوعي الفرنسي الذي كان يملي عليه برنامج العمل والسياسة الواجب إتباعها في

الجزائر، وحتى عندما أصبح الأوروبيين أقلية داخل هذا الحزب لم يمتلك هذا الأخير الجرأة لتبني تلك المطالب بشكل صادق وحقيقي.

إن تركيز الشيوعيين في نضالهم على المطالب الاقتصادية والاجتماعية دون السياسية قد يحمل على الاعتقاد بأنه راجع إلى إدراك الشيوعيين لفشلهم على الصعيد السياسي، ومن ثم جاء نضالهم في بقية المجالات كمحاولة للتورية أو التعويض على ذلك الفشل، بمعنى أن عجزهم في تحقيق "الثورة السياسية" التي تنادي بها الشيوعية جعلهم يتبنون "الثورة الاجتماعية"، الأمر الذي جعل "الثورة الشيوعية" تتحول في الجزائر إلى "حركة إصلاحية"، وحتى هذه الصفة الأخيرة (الإصلاحية) والتي يطلقها البعض على هذا الحزب لا ينبغي أن يفهم منها بأنها تعبر عن تبني الشيوعيين لمشروع إصلاحي خاصة في المجال الاجتماعي والاقتصادي على غرار المشروع الإصلاحي لجمعية العلماء في المجال التربوي والديني، وإنما المقصود بها ذلك النضال الجزئي والمطالب المحدودة التي طبعت المسار النضالي لهؤلاء الشيوعيين خلال الحركة الوطنية وحتى السنوات الأولى من الثورة التحريرية.

لعل الذي يمكن أن يدعم هذا الطرح الذي يقلل من قيمة النضال الاجتماعي والاقتصادي الذي خاضه الشيوعيون في الجزائر، هو أن مشكل الجزائر كان مشكلا سياسيا بامتياز، ولم يكن يوما مشكلا اجتماعيا أو اقتصاديا أو ثقافيا، و إذ نسوق هذه الفكرة لا نبغي من ورائها إلغاء أهمية النضال في هذه المجالات أو التقليل من وزنه في حياة الأهالي الجزائريين، وإنما القصد أن النضال الحقيقي الذي كان يفرضه الواقع الجزائري آنذاك كان ذلك الذي يسعى إلى حل المشكل السياسي وليس غيره، لارتباط المشاكل الأخرى بالحالة السياسية التي كانت تعيشها الجزائر، والتي كان يتعذر معها إيجاد حلول حقيقية ودائمة لهذه المشاكل، بالشكل الذي يجعلها تستجيب للمطامح الحقيقية للشعب الجزائري من دون حل المشكلة السياسية. وانطلاقا من هذا الأساس يمكن القول بأن حصر وتركيز أي تنظيم سياسي لبرنامج عمله ونضاله بعيدا عن الحقل السياسي أو اعتباره حقلًا نضاليا ثانويا كان يجعله يبدو تنظيما غير مدرك للواقع الجزائري، عاجزا عن فهم مقتضياته، بل حتى غربيا عن الجزائر، وهذا حال الحزب الشيوعي الجزائري الذي رمى بكل ثقله النضالي في الحقل الاجتماعي والاقتصادي وتفادى مرارا النضال الحقيقي في

الحقل السياسي، الأمر الذي عبّر عن خلاله عن رفضه الاعتراف بحقيقة المشكل الجزائري الذي كان سياسيا يسعى إلى نيل "الحرية"، ولم يكن يوما اجتماعيا أو اقتصاديا يسعى للحصول على "الخبز والشغل" فقط، لذلك يمكن القول أيضا بأن السمة الاجتماعية والاقتصادية التي طبعت نضال ومطالب هذا الحزب فضلا عن عديد الأخطاء والهفوات الكثيرة والكبيرة التي وقع فيها، جعلته يبدو تنظيما معزولا وغريبا إلى حد بعيد عن الجزائر وأهاليها، وكانت سببا لفشله في مواكبة الحركة الوطنية الجزائرية وتناقضه معها.

وفي الأخير نختم بالقول أن الأحزاب والتنظيمات التي استطاعت أن تبني تصوراتها وبرامج عملها في معالجة المشكل الجزائري وفق ما كانت تقتضيه الوضعية الحقيقية للجزائر، هي تلك التي نجحت في تحقيق ما كانت تطمح إليه، ولقد بين لنا التاريخ صحة ودقة تصوراتها وأطروحاتها. في حين كان نضال ما سواها على الهامش، إن لم نقل نضالا زائفا.

قائمة المراجع:

- سليمان الشيخ. (2002). الجزائر تحمل السلاح دراسة في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة. (محمد حافظ الجمالي، المترجمون) الجزائر: منشورات وزارة المجاهدين.
- شارل رويبر أجرون. (2008). تاريخ الجزائر المعاصرة (المجلد 2). الجزائر: دار الأمة.
- عبد الكريم بوصفصاف. (2009). جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و دورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945. الجزائر: عالم المعرفة.
- عزيز خيثر. (2017). العمل النقابي في الجزائر ودوره في خدمة القضية الوطنية – الاتحاد العام للعمال الجزائريين نموذجاً- 1956-1962 (أطروحة دكتوراه). بوزريعة، المدرسة العليا للأساتذة، الجزائر: المدرسة العليا للأساتذة.
- عزيز خيثر. (جانفي، 2016). "ظهور التنظيم الشيوعي بالجزائر و موقفه من فكرة الوطنية 1920-1936". المجلة التاريخية المغربية، 34(162)، الصفحات 279-307.

- عمار بوحوش. (2008). التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962 (المجلد 2). الجزائر: دار البصائر.
- محفوظ قداش. (2008). تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1919-1939 (الإصدار 1، المجلد 1). (أحمد بن البار، المترجمون) الجزائر: دار الأمة.
- محفوظ قداش. (2008). تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1939-1951 (الإصدار 1، المجلد 2). (أحمد بن البار، المترجمون) الجزائر: دار الأمة.
- محمد العربي الزبيري. (2007). تاريخ الجزائر المعاصر 1954-1962. الجزائر: الطباعة الشعبية للجيش.
- محمد حربي. (2006). الثورة الجزائرية سنوات المخاض. (نجيب عياد، المترجمون) الجزائر: موفم للنشر.
- محمد قناناش. (2012). النقايبون الجزائريون والمسألة الوطنية 1946-1956 (أطروحة دكتوراه). كلية العلوم الانسانية، وهران: جامعة أحمد بن بلة.
- Agéron, C.-R. (2005). de l'Algérie Francaise al'Algérie Algérienne . Paris: éditions Bouchene.